التداخل بين اللغتين العربية والإسبانية

قبل أن نتطرق إلى دراسة أشكال هذا التداخل وآثاره في كل من اللغة العربية والإسبانية، لا بد لنا من العودة إلى طبيعة اللغة العربية التي وصلت إلى الجزيرة الإيبيرية وتطورها في مراحل الكيان الأندلسي التاريخية من ناحية، ومن ناحية أخرى إلى طبيعة اللغة الإسبانية التي عاشت إلى جانب العربية خلال هذه القرون الطوال. استناداً إلى آراء الأستاذ كورينطي وهو من كبار المتخصصين في لغة أهل الأندلس على المستوى العالمي ، يمكن القول إن اللغة العربية التي وصلت إلى أراضي الجزيرة الإيبيرية لها مستويان أولهما اللغة الشعبية العامية المتأثرة باللغة الأمازيغية، والتي تحولت بمرور الزمان لتشكل ما يعرف باسم عربية أهل الأندلس، وثانيهما اللغة العربية الفصحى الرسمية الحاملة لرسالة الإسلام والثقافة العربية الشرقية. أما اللغة الإسبانية، فلم تكن في تلك الحقبة من الزمان قد وصلت إلى مرحلة النضج، وإلى جانب اللغة اللاتينية الرسمية التي كان وضعها قد تدهور بشكل كبير وسلكت طريق النسيان، ظهرت في شبه الجزيرة الأيبيرية مجموعة من اللهجات العامية الإسبانية أو الرومانسية المختلفة التي كانت تفتقر إلى المزيد من الغنى المعجمي والتطور الداخلي لتتحول إلى لغات قادرة بحد ذاتها على مواكبة التقدم المعرفي والتعبير عن الأفكار الجديدة والمفاهيم المتطورة. في هذا السياق، يقول الأستاذ كورينطي: «فلم يلبث أن بدأ نطاق استعمال اللغة العربية يتسع لدى جميع طبقات المجتمع الأندلسي حتى الفلاحين في أريافهم والرعاة في جبالهم والصناع والعبيد في أسواقهم، في حين أن العجمية (اسم أطلق على الإسبانية أو الرومانسية في المصادر العربية) كلغة مغلوبة في المنافسة الاجتماعية كانت تفتقر إلى مفردات وتراكيب اضطرت لاستعارتها من اللغة العربية الغالبة، لكي تسد ثلماً وتقوم مقام كلماتها وقواعدها الأصلية، فأدى ذلك أولا إلى نشوء لغة مختلطة انعكست في خرجات الموشحات المشهورة، ثم إلى تقلص العجمية وانقراضها في القرن السادس

الهجري». ويعني ذلك أن التعايش والتداخل بين اللغتين خلال المدة الأولى، إلى أن اشتدّ ساعد العربية وضربت جذورها في الأندلس، بعد ما يقارب قرنين من وصولها إليها، أدى إلى وجود تأثير ملموس من اللغة العربية على اللغات الرومانسية، في حين أن اللغة العربية لم تتأثر باللغات الرومانسية إلا بشكل محدود، إذا استثنينا حضور الألفاظ والتعابير الإسبانية في بعض النماذج من الشعر الشعبي، مثل قلة من الخرجات التي كانت بعض الموشحات تختتم بها والأزجال الشعبية المكتوبة بالعامية الأندلسية، مثل أزجال ابن قزمان الشهيرة التي نجد فيها عددا من المقتبسات الإسبانية .

وفيالمنطقة المركزية وعلى وجه الخصوص مدينة طليطلة ومحيطها، التي سكنتها خلال العهد الإسلامي جماعة من المسيحيين أطلق عليهم اسم «المستعربين» (باللغة الإسبانية los mozárabes):لأنهم احتفظوا بالديانة المسيحية ولكنهم تعربوا لغويا وثقافيا، استعملوا اللغة العربية، شأنهم في ذلك شأن سائر سكان طليطلة من المسلمين واليهود. واللافت للنظر أنهم بعد سقوط مدينة طليطلة في أيدي الملك الإسباني ألفونسو السادس في ٢٥ مايو من عام ١٠٨٥ م. (٢٧ محرم ٤٧٨ ه.) كانوا لا يزالون يستعملون اللغة العربية، وذلك لمدة قرنين كاملين من الزمان وفي سياق سياسي وحضاري يختلف عن السياق الأندلسي والجو الإسلامي السابق اختلافاً جوهرياً، والبرهان القاطع على احتفاظهم بالعربية هو وجود عدد كبير من الوثائق يقارب ألفين ومائتي وثيقة مخصصة لأغراض شتى، كعقود البيع والشراء والهبات والقروض وعقود الإيجار والنكاح والوصاية وهلم جرا . هذه الوثائق المحررة باللغة العربية تشير إلى بقاء العربية لغة رسمية ولو لجزء يسير من سكان مدينة طليطلة التي شهدت وفود عدد كبير من المسيحيين الآتين من الشمال، والتي تحولت إلى مركز ثقافي متميز وجسر حقيقي بين الثقافتين العربية والإسبانية بفضل أعمال الترجمة التي تطورت فيها بشكل كبير. وإذا ما تساءلنا عن أسباب احتفاظ المستعربين باللغة العربية لتحرير العقود الرسمية، فيجب علينا أن نميز المرحلة الأولى التي اعتبرت فيها العربية الخيار الوحيد، نظراً إلى أن اللغة الإسبانية لم تكن قد ارتقت بعد

إلى منزلة اللغات الرصينة الناضجة وإلى أن اللغة اللاتينية كانت في وضع متدهور بسبب نزعة المستعربين إلى اللغة العربية، أما المرحلة الثانية، أي القرن الثالث عشر، بعد أن أصبحت اللغة الإسبانية لغة معترفا بها لكتابة النصوص الرسمية والأدب، فهناك سبب آخر للعزوف عنها وهو أن تحرير العقود بالعربية مكن المستعربين من تمييز أنفسهم عن الجماعات المسيحية الأخرى الوافدة من الشمال التي لم تعرف اللغة والثقافة العربيتين، خصوصاً وأن الملك ألفونسو السادس منح جماعة المستعربين امتيازات ضريبية وفي هذا الصدد اعتبرت اللغة العربية رمزاً وشعاراً لهم تجاه الآخرين. وفيما يخص نوع اللغة العربية التي حررت بها الوثائق، فهي لغة عربية فصيحة تتخللها من الفينة إلى الأخرى اللهجة الأندلسية الدارجة، وفقا للدراسات اللسانية الدقيقة المنشورة في هذا الموضوع.
وبالإضافة إلى ذلك، تتضمن نصوص المستعربين مجموعة من الألفاظ الإسبانية الأصل التي يزداد عددها مع مرور الزمن، دون أن تزيد نسبتها في أي حال من الأحوال عن ٧٪ من إجمالي الكلمات. ويعد هذا مثالا لتداخل لغتين لا يخرج عن المألوف إذ إنه من الطبيعي في مثل هذه الحالات من التعايش والتماسّ أن تأخذ اللغة الأولى من الثانية والثانية من الأولى في عملية التأثير والتأثر اللغوي المعتاد.

يتضح من كل ما سبق ذكره أن التداخل بين اللغتين العربية والإسبانية لم يقتصر على العهد الأندلسي، بل إنه امتد إلى ما بعد ذلك وصولاً إلى القرن السابع عشر الميلادي.

أشكال هذا التداخل وآثاره

أ) المستوى الصوتي

إن النطق الاسباني، في أصله وبسبب تأثير اللغة الباسكية ولغات إيبيرية أخرى قبل الاستعمار الروماني لشبه جزيرة إيبيريا، قريب من النطق العربي، وفي اللغة الأسبانية الصحيحة صوتان مأخوذان من العربية وهما الثاء والخاء في الكتابة والنطق. وهناك أصوات عربية أخرى موجودة في النطق الأسباني ولكنها غير معبر عنها في الكتابة مثل الذال والصاد والغين.

ووجود هذه الأصوات العربية في النطق لا يعنى أن الناطقين بالأسبانية واعون وقوعها في لغتهم وأنهم قادرون على تمييزها واستخدامها في تعلمهم العربية. ولكن من الممكن الإشارة إلى وجودها في النطق الأسباني عبر أمثلة لتوعيتهم بها. وفي اللهجات الأسبانية عامة وفي الجنوبية خاصة، هناك أصوات عربية أخرى وهي الهاء والشين والجيم، وفي لهجة أهالي غرناطة القاف. وكل هذه اللهجات معروفة سماعيا عند جميع الأسبان في إسبانيا ومن الممكن الاستدلال بها لتقريب اللغة العربية إليهم وتشجيعهم على تعلمها. وكذلك هناك قرابة بين العربية والأسبانية في جمع الحركات وورودها في تشكيل المفردات. فالحركات العربية الثلاث (الفتحة، الكسرة والضمة) موجودة في الأسبانية.

ب) المستوى الصرفي

من أبرز ما يتجلى من تأثير العربية على الإسبانية في هذا المجال استعمال لاحقة النسبة، للدلالة على سكان البلدان العربية والإسلامية والشرقية وعلى كل ما يتعلق بها، مثل لفظي emiratí وpaquistaní العائدين إلى لفظي الإماراتي والباكستاني، بملاحظة أن نطاق استعمال هذه النسبة توسعت نوعا ما ووصلت إلى بعض الكلمات الأخرى

ج) المستوى التركيبي

لا شيء يذكر في هذا المجال إذ أن ما اقترحه بعض الباحثين من أن الإسبانية قلدت اللغة العربية في بعض التعابير والأساليب التي يلازم بها الفعل لفظ آخر مشتق من نفس الجذر مثل burla burlando، نظرا إلى أنها تشبه التعابير والأساليب العربية المتضمنة المفعول المطلق، فلا ينبغي أخذه بعين الاعتبار لأنه من المستبعد أن يتم نقل مثل هذه التعابير الفصيحة من الكلام العربي الدارج في الأندلس إلى اللغة الإسبانية القديمة، فمن المعروف أن أغلب الألفاظ العربية التي دخلت اللغة الإسبانية جاءت إليها شفهيا لا خطيا، عن طريق التماس اللساني العادي بين لغتين محكيتين.

د) المستوى المعجمي

إن عملية الاقتباس المعجمي لم تجر مباشرة عبر الحدود القائمة بين الأندلس والممالك النصرانية الشمالية، وإنما جرى أكثر عن طريق مهاجرة أهل الذمة المسيحيين المسمين بالمستعربين إلى تلك البقاع في القرنين الثالث والرابع الهجريين، خاصة عندما تحسنت أوضاع تلك الدويلات الاقتصادية والاجتماعية، فجذبت لأول مرة أهل الذمة المتحضرين بالحضارة الأندلسية متعربي اللغة مع حفاظهم على إلمام باللغة العجمية .

ويعني ذلك أن أغلب الكلمات تم نقلها إلى الإسبانية بطريقة شفهية غير مكتوبة، وأن الإسبان «أسبنوها» إن جاز لنا التعبير، أي وضعوها في القوالب والأوزان الصرفية الخاصة بلغتهم لكي تصبح جزءا لا يتجزأ من المعجم الإسباني، بعد تأقلمها مع البيئة اللسانية الجديدة، بما في ذلك دخول الكلمات العربية مع الألف واللام وإضافة حركة في آخر الكلمة تسهيلا للنطق، وإخضاعها لتحولات صوتية أخرى تدل على أن حركة انتقال هذه الألفاظ من اللغة العربية إلى الإسبانية كانت حركة طبيعية ناتجة عن تماس لغوي وتعايش مثمر بين ثقافتين.